جاك لاكان و بنية اللاوعي

أ.إيمان ملال
جامعة خنشلة

الملخص:
قدم جاك لاكان نظريته النفسية وفق التصور اللغوي حيث اعتمد في تحليلاته النفسية على اللغة بوصفها مرآة اللاوعي ،حاملا شعار "العودة الى فرويد" يلك العودة النظرية المهمة التي اشتهر بها لاكان و جدد آلياتها المعرفية من خلال التأكيد على منظومة اللغة في علاقتها باللاوعي و اكتشاف اهمية الدال في قيادة الوعي الذاتي للشخصية الانسانية و الخروج بنظرية جديدة اطلق عليها "نظرية المرآة"

Résumé :
Jacques Lacan a développé sa psychanalyse en reliant la parole à l'inconscient qui contient des signifiants psychanalytiques renvoyant aux signifiés. Par le prolongement de la théorie freudienne, il a introduit de nouveaux concepts, à l'égard ; « le stade du miroir » qui rend compte de la genèse du moi et le développement de la personalité.

- "جاك لاكان" وبنية اللاوعي :

إذا كان اللقاء بين البنيوية وعلم الإجتماع قد تحقق على يد "ليفي شتراوس"، وإذا كان المنهج البنيوي قد عرف طريقه إلى التاريخ الثقافي والابستيمولوجيا من خلال "ميشال فوكو" فإن الفضل في تلاقي البنيوية والتحليل النفسي يعود إلى "جاك لاكان" jacque lacan (1901-1981) وقد تميزت الأطروحات النظرية لـ "لاكان" بحضورها المتميز منذ أول ظهور لها.

إن أهم ما دعا إليه "لاكان" هو إعادة قراءة فرويد" من خلال إعادة صياغة أفكاره، وإعطائها بعدا مغايرا لما كانت عليه، خاصة مفاهيمه حول الوعي، اللاوعي، الأحلام وغيرها، وقد اتخذ "لاكان" اللغة وسيلة أخرى للعبور إلى العالم الداخلي للإنسان إذ يعتبرها مشكلة في صميم الإشكالية الإنسانية واعتبر الباحثون والنقاد أن لغة "لاكان" هي لغة مغلقة، واتهم بأنه باطني وأفكاره غامضة، كما أن خطاباته شديدة الاختصار، وهو ما أدى إلى عدم فهمها من قبل القراء على اختلاف مستوياتهم الفكرية والعلمية، وقد كان "لاكان" يردد "أن أفكاره التي يخيل للمرء عند قراءتها بأنها صعبة وعسيرة الفهم، لابد أن تصبح بعد عدة سنوات بمثابة البديهيات المتداولة، يتناقلها الناس فيما بينهم، متعدية في ذلك أصحاب الاختصاص".[1]

اعتبر "لاكان" أن الأسلوب هو الرجل وهو تعبير وجد عند "بوفون"، عندما عرف الأسلوب، وهي نظرية منبثقة من منظومته الفكرية ذات الطابع اللغوي، حيث اعتبر أن اللغة هي أساس التواصل بصفة عامة، لاسيما بين المحلل النفسي والمريض فهي نظرية قائمة بذاتها، وطريقة ناجعة في العلاج،وقد عده المفكرون والنقاد رائد التحليل النفسي البنيوي، لذلك ذهب للتأكيد بأن الاعتماد على اللغة البنائي سوف يسهم في تقديم وصف اللاشعور بطريقة علمية، ويفهم بالدقة اللازمة، وانطلاقا من ذلك عمل على تقديم قراءة مغايرة "لفرويد" مستندا في ذلك إلى المنهج اللغوي البنيوي، موضحا طريقته في ولوجه إلى بنية اللغة، باعتبارها من أهم مظاهر السلوك الإنساني.

فعلماء النفس يهتمون بالظاهرة اللغوية ليوضحوا السلوك بصفة عامة، واللغويون يهتمون بها ليبينوا السلوك اللغوي بصفة خاصة، فالمحلل النفسي إذا أراد أن يدرس الأحلام للكشف عن بعض العقد أو الأمراض، أو الأزمات النفسية (على اختلافها) عند شخص معين فإنه سيطلب من ذلك الشخص أن يحول أحلامه إلى سلوك لغوي، أي سيطلب منه أن يتكلم، وحينئذ لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن المحلل النفسي إنما يدرس ألفاظ ذلك الشخص وتعابيره، لا أحلامه في حد ذاتها.

وقد رأى بعض العلماء ممن وافقوا على منهج "لاكان" أن الدراسة اللغوية بصفة عامة إذا لم تقم على دراسة القوى النفسية الكامنة وراءها، فهي غير مكتملة، وكذلك الدراسة النفسية، عليها هي الأخرى أن تستعين بمعطيات علم اللغة، لكي يتحقق ما يعرف اليوم بعلم النفس اللغوي، والفضل يعود إلى جهود "لاكان" النفسية واللغوية في الوقت ذاته.[2]

تسير العودة إلى "فرويد" التي أعلن أنها رسالته الشخصية وشعاره في مسارين مختلفين: الأول والأوضح في إجراءاته هو استخراج أفكار "فرويد" من ركام التبسيطات والتفسيرات التي أغرقه بها من تلاه من الكتاب، أما أولئك الذين لا يرون في الأفكار الفرويدية أكثر من سلعة يتعاملون بها، فلا ينالون منه حتى الغمز العابر، فمعظم المحللين النفسانيين ارتكبوا ما هو أسوأ من سوء فهم "فرويد": لقد فقدوا الإحساس بوطأة هذه الأفكار وجدتها وإثارتها للحيرة كما صاغها أصلا، فقد فهمت هذه الأفكار بشكل بالغ السطحية وقبلت على ما هي عليه إذ أصبحت عائقا يقف أمام البحث العلمي في العمليات الذهنية بدلا من أن تكون بداية لمواصلة البحث، وفتح آفاق أخرى تلج الأحكام السابقة من زواياها المهملة.[3]

أما المسار الثاني، هو الأعقد مقارنة مع الأول فيتعلق ببعض المفاهيم التي جاء بها "فرويد" حول الوعي، اللاوعي وما يحكمهما، فهو يضطلع بمسؤولية تصحيح بعض الأجزاء التي رأى أنها تفتقد للمنطق، فهو يستقرء كتابات "فرويد" ويعمد إلى تصحيح ما أخطأ فهمه تلامذة "فرويد" أيضا، خاصة وأنهم جردوا التحليل النفسي بكل آلياته من فاعليته الانقلابية، لكي يلجؤوا إلى مفاهيم وراثية، ومبسطة، تقتصر فقط على علم السيكولوجيا السائد، وهذا يعني حسب "فرويد" إغلاق باب اللاوعي، بعد أن كان مفتوحا على مصرعيه.

اللاوعي أو اللاشعور، مبنى كبناء اللغة وليس فوضويا كما جاء عند "فرويد" و هذه النتيجة هي المحور الأساسي الذي انطلق منه "لاكان" في مجهوده الفكري، وإذا كان من السهل إطلاق مثل هذه الفكرة، فالصعوبة تكمن في البرهان عليها، لأن مثل هذا العمل يطال الفكر الإنساني بأكمله في منهجيته، ويعيد النظر في كثير من المعتقدات السائدة، وبنظر "لاكان" إن اكتشاف اللاوعي من قبل "فرويد" هو شيء يختلف تماما عن المفاهيم السابقة التي ظهرت.

يتحدى "لاكان" المحللين جميعا بأن يعودوا إلى قراءة كتب "فرويد" من أولها إلى آخرها لكي يتأكدوا بأن اللاوعي هو بنية في حد ذاتها، لها تركيبة شبيهة بتركيبة اللغة.[4]

إن "لاكان" يؤكد أن اللاشعور بنية منظمة ومهيكلة شأنها شأن بنية اللغة، وقد بنى تصوراته في التحليل النفسي على هذا الأساس، ومن ثم دعا إلى دراسة بنيات اللاشعور كما تدرس بنيات اللغة "فاللاشعور لغة، ومن ثم فهو

ليس نتيجة للكبت أو أعراض ذلك الكبت –كما رأى "فرويد"- وإنما هو خطاب discours، وهنا يتجه "لاكان" إلى "سوسير" ويمضي معه في سلسلة من الجدل والاستدلالات ينتهي فيها إلى أن اللغة استعارية بصورة أساسية، وهناك مقاومة ذاتية داخل اللغة للإلماع بالمعنى، وهذا الأخير لا يتيسر إلا بواسطة الاستعارة، والاستعارة حينئذ خلق مدلول جديد، وهي اللحظة التي يتم نسخها ما إن تكون، فلا يتكون مدلول إلا وهو دال لمدلول آخر، وهذا هو معنى الاستعارة في كلامه".[5]

في هذا الموقف يسعى "لاكان" كمحلل نفسي وعالم لسانيات إلى دراسة اللغة والتعبير عن منطلقات التحليل النفسي وتقنياته، مدرجا أساليب اللغة في كل إجراء.

يرى "ميشال فوكو" أن "لاكان" قد كشف من خلال خطاب المريض وأعراض أعصابه، أن المتكلم ليس هو الذات، بل البنيات اللغوية ونسق اللغة ذاته، وهذا الطرح يعبر عنه "لاكان" نفسه في قوله: "إن الطريق الذي افتتحه "فرويد" ليس له معنى آخر غير هذا الذي أقوله أن اللاشعور لغة".[6]

بعد تأكيد "لاكان" على البنية اللغوية لـــ اللاشعور، تطرق في ذات السياق إلى الأحلام حيث اعتبر أن صياغة الحلم وصياغة اللغة يعتمدان على نفس القاعدة والأسلوب: فالمجاز عنده هو بمثابة (التكثيف كما عند "فرويد")، الكناية أو المجاز المرسل بمثابة (النقلة)، أي أن العمليات الأولية تكمن وراء اللاوعي (اللاشعور)، والبلاغة هي التي أشبه بما سماه "فرويد" بالعمليات الثانوية، يفصلهما خط فاصل يقاوم كل محاولات الفهم لاختراقه، سيما استئصال المعنى الأخير أي المدلول.[7]

أي أن المدلول في نظر "لاكان" لا يرتبط بكلمة واحدة، أو معنى محدد، فإذا أردنا تأويل حلم بالكامل يصعب علينا استخراج المدلول الأخير له.

يشبه "لاكان" الدال والمدلول بنظرية الجرس الكهربائي، إذ لا تنفتح الدائرة إلا لتنغلق، ولا تنغلق إلا لتنفتح، وهكذا في سباق لا يتوقف المدلول يترحلق تحت دال يطفو.[8]

فوضوح الدال لا يعني بالضرورة وضوح المدلول بنفس الدقة، بل يبقى من الانشغالات الكبرى للفكر الإنساني بأبعاده التاريخية والثقافية والحضارية، غير أن ما يميز "لاكان" هو اهتمامه بالدال على حساب المدلول كما تثبت الرسالة المسروقة.

II-1-الدال وبنية اللغة واللاوعي:

إن اللغة أساس اللاوعي، وأساس تأويل الأحلام، إذ يكون الدال هو محور العملية اللغوية. فالتحليل الفنسي حسب "لاكان" يعيد للذات الجزء الناقص من خطابها الذي يعرفه بالجزء الذي ينقص الذات لكي تقيم خطابها الواعي، ويؤكد أن ماهية الإنسان توجد في اللغة والنظام الرمزي، الذي يعد عاملا حاسما في فهم الشخصية الإنسانية.

لقد اعترف "جاك لاكان" بفضل الألسنيين في إضاءة بعض المفاهيم، وعلى رأسهم "دي سوسير" و"جاكسبون"، الذين أسسا لعصر الألسنية الحديثة، فالأول "دي سوسير" حدد الوحدة اللغوية كجوهر ذي وجهين: الدال والمدلول، و الآخر ميز العمليتين الأساسيتين للكلام: انتقاء الوحدات اللغوية وتنسيقها، وما يلفت نظر "لاكان" عند "سوسير" ليس علاقة الدال بالمدلول التي يتحدد بموجبها المعنى، بل أنه على العكس من ذلك يلتفت إلى

الحاجز الفاصل "المقاوم للمعنى"، الذي يوجد بين الدال والمدلول من حيث هما نظامان متمايزان ومنفصلان، يقول "لاكان" "سنفشل في معالجة السؤال عن طبيعة اللغة طالما أننا لم نتخلص من الوهم القائل بأن وظيفة الدال تكمن في أنه يمثل المدلول أو بالأحرى أن الدال لا يوجد إلا بناء على معنى معين".[9]

إذا لقد استعان "لاكان" بالدراسات اللسانية في أبحاثه، خاصة فيما يتعلق بالدال والمدلول، فالدال هو الصورة السمعية، في حين المدلول هو الصورة الذهنية.

$$\text{علامة} = \frac{\text{دال}}{\text{مدلول}}$$

اختلف "لاكان" مع الألسنيين باسقاطه أفضلية العلامة واستبدالها في توالد المعاني واعتبر أن الفضل الأول والأخير يعود للدال نظرا لإرتباطه وتشابكه بسلسلة الدوال التي تكون الذات، فالدال حق الصدارة على المدلول، فهو في نظره مفصول عنه بخط سميك لا يمكن تجاوزه أو اختراقه

$$\frac{\text{دال}}{\text{مدلول}}$$

الدال هو الذي يقود قوانين بنيته، تدفق الكلام مدلول رتبطة بالدال لأنها تستخرج من أصل ارتداد الدال إلى دال آخر، وهكذا فالفارق بين د1 ود2 هو الذي يميزهما عن بعض ويفرز المعنى.

ولهذا الدال أفضلية في التعريف عن الذات، متنقلة ضمن السلسلة الدلالية هو الذي يعرف عنها ويشير إلى مكانها لأن الذات حسب تعريفه هي ما يمثله الدال بالنسبة إلى دال آخر، على اعتبار أن أي دال لا يستطيع أن يستأصل المعنى الأخير للمدلول.[10]

لقد أسس "لاكان" لنظرية "اللغة اللاشعور"، من خلال اتكائه على أطروحات "فرويد" حول الأحلام ودراسة خطاب اللاشعور من حيث تركيباته وبنياته،وقوانينه من جهة واستحضاره من جهة أخرى لمبدأ "دي سوسير" و"جاكسبون" حول اللغة وعلاقات الدال بالمدلول، وهذا المستوى الذي تبلغه اللغة متصل بالمرحلة الأولى لتشكل الذات عند الطفل وبداية انفصال شخصيته وتميزها عن الآخرين.[11]

II-2-مرحلة المرآة باعتبارها مشكلة لوظيفة الأنا:

تأتي هذه المرحلة في حياة الفرد الإنساني ما بين ستة أشهر وسن السنة والنصف، وهي الفترة التي يتمكن الفرد فيها للمرة الأولى من تصور نفسه باعتباره كيانا متناسقا يتحكم بذاته رغم عدم اكتمال سيطرته على نشاطه الجسماني وهذه الصورة يستطيع الحصول عليها بشكل مجسد عندما يرى صورته في المرآة.

"إن هذا التقبل الفرح من قبل الطفل في مرحلة الرضاعة لصورته المرآوية، بينما هو لا يزال غارقا في عجزه الحركي واعتماده على الرضاعة والرعاية، يبدو أنه يكشف في موقف مثالي الوضع الرمزي الذي تترسب فيه الأنا في شكلها الأولي، قبل أن تتموضع في جدلية التماهي مع الآخر، وقبل أن تعيد لها اللغة في شكلها الشمولي وظيفتها باعتبارها ذاتا.[12]

تتميز مرحلة المرآة عند "جاك لاكان" ببروز الوحدات الدلالية المتضمنة للفروق بين ما هـــو خيـــالي imaginaire ويكون في مرحلة ما قبل الأوديبي حين لا تكون في حياة الطفل إلا الأم التي تنظم حياته بحضورها وغيابها، ويعيش بالتالي على نمط الوجود المتوحد بالغير غير المجزأ –وما هو رمزي symboliqme– وهو وصول الطفل إلى المرحلة الغيرية التي يمكنه من خلالها التمييز بين أنا وأنت وهو وهي.[13]

لا يرى الطفل في الآخر، أو في صورة المرآة، أو في أمه، إلا الشبيه الذي يميزه عن ذاته، وهذا لا يدعوإلى الغرابة لمن يراقب الأطفال ما بين الشهر السادس والشهر الثاني عشر، فإذا ما ضرب الطفل طفلا آخر يبكي كما لو ضرب هو، وإذا ما اعتدى على أحدهم يبكي كما لو كان قد اعتدى عليه، فهذا يدل على أن الطفل لا يفـــرق بـــين صورته وصورة الآخر التي التقطها، وأصبح مرهونا بها، ويتساءل "لاكان" ماذا دهى بالطفل لكي يأخـــذ بهـــذه الصورة التي يصادفها في المرآة، والتي تلازمه مدى الحياة؟[14]

فالمرآة إذا هي التي تجسد صورة الطفل لأول مرة، بحيث يحاول الطفل أن يقوم بحركات يحدد فيها معالم الصورة، ويمكن تقسم مرحلة المرآة إلى ثلاث محطات أساسية:

1/ في المرحلة الأولى، يدرك الطفل انعكاس المرآة باعتبارها كائنا واقعيا يحاول الإمساك به، أو الاقتراب منه ويرد على هذه الصورة بإيمائه ابتهاجية، إلا أن كل شيء يبدو وكأنه يشير إلى أن هذا الحضور المرآوي، وهذه الصورة التي هي صورته، يجري التعرف عليها باعتبارها صورة شخص آخر، وتدرك صورة الآخر، وعلى العكس من ذلك باعتبارها صورة لجسده الخاص به.

وسيفهم الطفل في لحظة ثانية، أن آخر المرآة ليس سوى صورة، لا كائنا واقعيا لن يبحث عن الإمساك بالصورة، ولن يبحث عن الآخر وراء المرآة.[15]

أما المرحلة الثالثة فلن يطبعها التعرف على الآخر باعتباره صورة فحسب، وإنما سيتعرف على الآخر أيضا باعتباره صورته، والآن أصبح الطفل يعلم أن انعكاس المرآة صورة، وأن هذه الصورة صورته، وإن غزو هوية الذات سيتم من خلال هذا الجدل بين الكينونة والمظهر، وعبر الصورة الكلية والمستبقة لوحدة جسدها.[16]

إن الصورة المتكاملة الموحدة في المرآة والموقع الجسدي المجزأ تنتج عنهما عمليتان مهمتان الأولى يميز فيها الطفل في هذه الصورة وجوده ككائن يتحدد بالنسبة للآخر، ويصبح بحكم ذلك الممثل الأول للأنا التي يخاطب بها (الأنت) –من حيث إن اعترافه بالآخر، كشيء مختلف ومميز عنه، هو في الوقت نفسه ارتداد للإعتراف به كونه وحـــدة مميزة عن الآخر شبيهه، أما العملية الثانية فتفتح أمامه باب التماهي: أي يتماهى بالآخرين إنطلاقا من هذه الخطوة الأولى، عندما تتكون الأنا في آخر المطاف من مجموعة هذه التماهيات المخيالية ومن هذا الباب أيضا يدخل الطفل إلى عالم الرموز عبر التعبير اللغوي، ويستند هذا النظام على جملة من النواهي والمحرمات واكتشاف الاختلافـــات أيضا، فيدرك الطفل الفرق بين الرجل والمرأة، وبالتحديد الأم والأب، الذكر والأنثى، الحاضر والغائب...إلخ.

يقول "جاك لاكان": "ويكفي لذلك أن تفهم مرحلة المرآة باعتبارها تماهيا، بالمعنى الكامل الذي يعطيه التحليـــل النفسي لهذه العبارة، أي بمعنى التحول الذي يطرأ على الذات عندما تتقلد صورة ما حيث يكون مصيرها في هذا

الأثر المرحلي مشارا إليه بما يكفي من طرق الاستعمال، داخل النظرية، من خلال اللفظ القديم "الصورة الهوامية".[17]

إن مقالات "جاك لاكان" عن مرحلة المرآة، أثبتت أنها أعظم إيحاء وتأثيرا، مقارنة بأعمال الثقافة المعاصرة، ذلك أنها سلطت الضوء على ظاهرة مهمة جدا في حياة الطفل كانت مهملة قبله، وهو بذلك يميز ما هو خيالي وما هو رمزي عن طريق اللغة.

من أهم ما تطرق إليه "جاك لاكان" أيضا هو موضوع الرغبة، أو الرغبة في رغبة الآخر، وعلاقتها باللغة، ومعنى هذا أن التحليل النفسي هو بمثابة لعبة الحقيقة التي تقوم على حركات الحضور والغياب، والتي يجئ فيها حديث الآخر، فيقوم هو بتأسيس حديث الذات والصلة وثيقة عند "لاكان" بين آخر اللاشعور، وآخر الرغبة، ما دامت رغبة الإنسان هي دائما رغبة في الآخر، والواقع أن الآخر ليس مجرد موضوع للرغبة، وإنما هو من الذات بمثابة المحل أو المصدر التي تنبعث منه كل أحاديث لا شعورها، ولاشك أن "لاكان" هنا يجمع في تصوره لهذا "الآخر" بين نظرية "فرويد" الواردة في كتابه "تفسير الأحلام" من جهة وبين نظرية "هيجل" الواردة في الجزء الأول من مؤلفه "فنولوجيا الروح" من جهة أخرى.[18]

مهما تكن مجهودات الذات، فسيظل ثمة دائما بعض من الرغبة غير معبر عنها، أو معبر عنها تعبيرا رديئا، أي بعض من الرغبة في حالة ألم، يقول "لاكان" "فالأمر يتعلق بتوصلنا إلى التعبير عن رغبتنا بأحسن الطرق الممكنة، وتوصلنا إلى لغة رغبتنا، وهي مهمة صعبة صعوبة خاصة".[19]

إن الطفل بتحديقه في المرآة يختبر استجابتين متناقضتين، ليس بالضرورة في وقت واحد، فمن جهة يحقق الرغبة البشرية المستمرة للتحديد والانصهار عندما يعرف نفسه برعشة النشاط البهيج، ومن ناحية أخرى يتعلم أن هذه الصورة، التي تقدم وعدا بالكلية والهوية الذاتية، هي من ضرب الخيال.[20]

أما عن علاقة الرغبة باللغة، فهي لا تدخل إطارها الإنساني إلا بعد أن تخلق من اللغة أي تنتقل من حقل التصوير والخيال إلى حقل الرمز.

إن الرغبة تتجاوز الحاجة، لأنها ليست مجرد نداء موجه للآخر من حيث هو آخر، كما أنها ليست مجرد إلتماس للحب وإنما هي على حد تعبير "هيجل" رغبة في رغبة الآخر، أي أنها رغبة في انتزاع اعتراف الآخر بصميم رغبة الذات وقد استلهم "لاكان" نظريته في الرغبة من نظرية "فرويد" المعروفة في "الليبيدو" أو "الطاقة الجنسية".[21]

إن موضوع الرغبة عند "لاكان" يبدأ من المراحل الأولى للطفولة، ولكنه في ذات الوقت فرق بين الرغبة، الحاجة، والطلب، فالرغبة هي غير الحاجة البدنية، والطلب هو الممهد للحصول على الحاجة عبر سلسلة من الدوال الموجهة إلى الآخر، أما الطلب فلا يكتفي بإكفاء الحاجة حقها من الإشباع، بل يتعداها إلى أبعد من ذلك.

II-3-"جاك لاكان" والرسالة المسروقة لـ "إدغار آلان بو":

يركز "جاك لاكان" من خلال تحليله للرسالة المسروقة لـ "إدغار آلان بو" على البنية الرمزية والدلالة التي تعد ضمن أطروحاته المركزية، وقد حاول إدخال اللسانيات البنيوية في عمله هذا خاصة وأنه يشرح بنية هذا الرمز أو الدال على نحو ما تتجلى في صميم اللاشعور، مستعينا في ذلك بالنظرية اللغوية، ويؤكد "لاكان" أنه يجب تفسير

العلاقة بين الدال والمدلول على اعتبار أنها صلة لا تخلو من انفصال، ما دام الدال المتضمن في اللاشعور لا يحيل بالضرورة إلى مدلول محدد وواضح تماما.

لهذا الغرض أراد "لاكان" دراسة "الرسالة المسروقة" لـ "بو"، التي نشرها في مؤلفه كتابات "ecrits" ليعطي برهانا على نظريته، "ويبين المستوى الإجرائي الذي تعامل من خلاله مع النص الأدبي ومدى استثماره للبنية الشكلية للسانيات البنيوية في التحليل النفسي وكذا رؤيته للاشعور والقوانين التي تتحكم في سير الدلالة وسلسلة الدوال والمدلولات الأساسية، ومدى ارتباطها بالعلاقات البيشخصية (بين الأشخاص) أو البيذاتية intersubjective".[22]

ركز "لاكان" في دراسته للقصة على مشهدين: المشهد الأول تدور أحداثه في القاعة الملكية، حيث تفاجأ الملكة بدخول الملك بصحبة الوزير، بينما كانت تقرأ رسالة هامة، ولكي لا تثير شكوك الملك بمحتوى الرسالة، تضعها على الطاولة بشكل عادي ومهمل والعنوان للأعلى، مخفية بذلك انفعالها، جاعلة من اللامبالاة ستارا تخفي وراءه اضطرابها وأهمية الأمر، أما الوزير صاحب الدهاء، لاحظ اضطراب الملكة، وأدرك بعينه الرقيبة أهمية الموضوع، كذلك دون أن يبدي أي اهتمام على غرار الملك يخرج من جيبه رسالة شبيهة يضعها مكان الرسالة الأصلية، الملكة أدركت ما حصل لكن فضلت السكوت، حتى لا يقضي عليها بانكشاف سرها.

أما المشهد الثاني فيحدث في مكتب الوزير، حيث الملكة لا تيأس من استعادة الرسالة، وبإيعاز منها، يقوم البوليس بحملة تفتيش في منزل الوزير بحثا عن الرسالة ولكن دون جدوى، عندئذ يتوجه قائد الشرطة إلى تحري يسمى "ديبان dupin" يطلب مساعدته لتمكينه من الحصول على الرسالة؛ "ديبان" يقوم بزيارتين إلى الوزير: الأولى استكشافية يعين فيها مكان وجود الرسالة، وفي الثانية ينفذ مخططه بالاتفاق مع سائق عربة بإطلاقه عيارا ناريا في الشارع مما يشغل بال الوزير خلال فترة من الزمن، الوقت الكافي لكي يضع "ديبان" رسالة شبيهة بالرسالة التي كان قد موهها الوزير بعنوانه ووضعها على مكتبه كما لو كانت رسالة عادية مرسلة من الخارج، "ديبان" كان يدرك خطة الوزير ويعلم أن أحسن السبل لإخفاء الشيء الهام هو وضعه في دائرة نظر الذي يفتش عليه، لأنه سيفتش خارج هذا الإطار.

الرسالة الآن في حوزة "ديبان" يتساءل ماذا يفعل بها؟ يقرر أن يستدعي قائد الشرطة، ويعرض عليه أنه لقاء تسليم الرسالة ثمن، سيستجيب لهذا الطلب، وفي الحال يأخذ الرسالة ويدفع إلى "ديبان" مبلغا معينا، مقابل ذلك يخرج التحري من الحلقة الرمزية، والوزير لم يكتشف أنه فقد الرسالة التي تمت إعادتها للملكة.[23]

لقد وجد "لاكان" في هذه القصة ما يجسد حضور الدال ووظيفته في التحكم بالأشخاص وبأدوارهم، وهو مثال حاول "لاكان" من خلاله أن يظهر فعالية الدال في تركيبة اللاوعي (اللاشعور) بنى على أساسه جدليته المنطقية في تكوين اللاوعي، انطلاقا من أن الذات منقسمة على نفسها بمجرد أن ترضخ لحكم الكلام.

لقد سعى "لاكان" إلى التركيز على البنية النصية، ومساراتها وتكراراتها، بما يتيح تفكيك سلسلة الدوال المتراكبة عبر الرموز التي يتضمنها السرد؛ في البداية يرى "لاكان" أن آلية الاستبدال والتكرار هي التي تتحكم في أسلوبية القصة، فالمشهد الثاني هو تكرار للمشهد الأول، ومسار الدال يتوالى في حركة توزيعية تناوبية متتالية بين

الشخصيات التي تتبادل الأفعال الرمزية، وأن آلية التكرار automatisme de répétition تتحـــدد مـــن خـــلال المشهدين بـــ:

- ثلاثة رموز مرتبطة بحادثة واحدة.
- السرقة.
- الرسالة المسروقة.[24]

3-1-منطقية العلاقات مع الحقيقة:

يعرف "لاكان" أولا المواقف المختلفة للموضوع في مواجهة الحقيقة عن طريق تحليل لعبة النظرات بحسب المعادلة الأساسية: من يرى =يعلم.

ثلاثة أزمنة إذن تنظم ثلاث نظرات مستندة إلى ثلاثة موضوعات، متجسدة في كل مرة بأشخاص مختلفين.

الأول من ينظر لا يرى شيئا= الملك والبوليس.

الثاني من ينظر يرى أن الأول لا يرى شيئا ويخشى كشف ما يخفيه = الملكة والوزير.

الثالث من هذين النظرين يرى أنه ترك ما يجب أن يخفيه مكشوفا أمام من يريد الاستيلاء عليـــه، إنـــه الـــوزير، و"دوبان" في النهاية.

يلاحظ ضمن هذا النظام الصارم اختفاء عنصرين الملكة، بخلاف الوزير، ترى وتعرف أن الرسالة قد ســـرقت، وتعرف أيضا من خلال معرفة أخرى، أن "دوبان" ليس وزيرا ثانيا وأنه سيعيد لها الرسالة لا يبدو إذن أنها تنتمـــي إلى هذه الفئة، المفروض أن تحدد الموضوع في علاقاته مع الحقيقة، أنا الملك فهو أعمى من البداية إلى النهاية وكأنه خارج اللعبة، وحضوره شكلي فقط.

وانطلاقا من تقنية تحديد المواقع، يرى "لاكان" أن الملكة والوزير و"دوبان" يتبادلون الأمكنة بين المشهدين الأول والثاني، وحركة الأشخاص تتم عبر الرسالة، فبانتقالها من شخص لآخر يتغير المكان.[25]

إن الرسالة المسروقة في نظر "لاكان" تمثل بحق الدال بكل معاينة وأفضليته على المدلول فالقصة تدور حول مـــن بحوزته الرسالة، وهي تنتقل من يد إلى يد، بعض النظر عما تحتويه هذه الرسالة من معلومات، قد تكون غرامية، أو حاملة لمؤامرة على الملك، أو أخبارا خطيرة "حركة الدال هي التي تعطي الأهمية للذات التي تتشكل وتأخذ موقعها تبعا لعلاقاتها معه في سياق البنية التكرارية، وتعبر الذوات والشخصيات، إذ يتحول الدال إلى شيء رمزي يختـــرق السلسلة الرمزية في المشهدين الأول والثاني، دون أن ينتمي لأي منهما وتتبادل الذوات الأدوار إزاءه بين رغبة في الامتلاك وسعي للتمثل والحضور لأن الذات في رأي "لاكان" هي وجود رمزي وحركتـــها هـــي مـــن وحـــي اللاشعور".[26]

فالبنية في هذه القصة وضعت بين أدينا سلسلتين من المشاهد، جاءت ذوات مختلفة في كل مرة لكي تشغل فيهـــا الأماكن التي لابد من شغلها، وهنا يظهر "الطابع التكراري المميز للبنية –فيما يقول لاكان- لأننا نجد أنفسنا بإزاء مركب تبادلي conplesce intersubjectif يتألف من علاقات تتم عبر الأفراد، وكأن ثمة آلية تكرارية تفرض على كل ذات أن تجيء لتحل محل ذات أخرى سبقتها في الموضع نفسه".[27]

لقد استبعد "لاكان" من منظوره الذي عالج به الرسالة المسروقة التنظير للنقد الأدبي أو الدراسة الأدبية الصرفة التي تأخذ على عاتقها مساءلة النواحي المتعلقة بالجنس الأدبي، واهتم بالجانب التفسيري الذي يتخذ طابع الشمولية وإمكانية التطبيق على نصوص أخرى استنادا إلى أطروحاته حول الدال وبنية اللاوعي، ونظريته في الرغبة، وأخيرا البنية التكرارية، وقد اتسمت خطوة "لاكان" بأثرها العميق خاصة في تصحيح الانحراف الذي سار عليه التحليل النفسي.[28]

من هذا المنطلق يبين "لاكان" أهمية الرمز في تكون الذات، فالذات لا تكون الرموز إنما هي وليدتها، تتحكم بها وتؤثر بمصيرها واللاشعور مبني كاللغة، تتوقع تنظيمات لا محدودة لعناصر محددة، ولكنها مرتبطة بشكل مختلف فيما بينها.

يتضح من هذه الدراسة أن "لاكان" يستبعد المبدع نفسه من النص ويمنح القارئ الحرية المطلقة في التأويل للمكنات الرمزية للدال واللغة واللاشعور موضحا أن الكيفية التي يستخدم بها "بو" اللغة تضع القصة نفسها في سياق جديد تماما، فالذات هنا مرتهنة أولا بالدال لأنه لا يمكن أن تتصور أن لها سببا للظهور في الواقع، لأن للدال أولوية على الذات.[29]

فالدال إذا هو الذي يمثل الذات بالنسبة لدال آخر، وهذه الحقيقة تتأكد في كل إنتاجات اللاوعي، لأن الدال يتكون في موضع الآخر الكبير كما يقول "عدنان حب الله" وهو المكان الرمزي حيث يلتقي الكلام، وتفك رموزه، وتتوضح معانيه.

نظرية "لاكان" أيضا لم تسلم من النقد، فقد وصف "أندري أكون" بعض الأحكام المتعصبة لنظرية التحليل النفسي الفرويدي والتي ساقها "جاك لاكان" بالاستفزازية، وخاصة حين جعل "فرويد" لسانيا، وذلك لما قرر :"فإن نقرأ فرويد، فمن أجل فهم اللاوعي الذي يتحدث عنه على أنه لا يجوز وصفه بالاستعمال الرومنتيكي للاوعي الذي يحيل على التحقيق، والجوهري والبدائي، ألا لا صلة لذاك، بل إن ما نرى في "فرويد"، هو ذلك الرجل الذي لم يبرح طول الزمن يحمل نفسه أشق الإعناء حول كل عنصر من مادته اللسانية، ليحمل تمفصلاتها على الانتظام فيما بينها، فذلكم هو فرويد اللساني"

رأى "جاك لاكان" في "فرويد" بوصفه لسانيا، وليس طبيبا نفسانيا فقط، خاصة وأنه تفنن في استعمال اللغة من خلال نظرية الكلام والتي حظيت باهتمام الباحثين في ذلك الوقت، إلا أن هناك من رفض هذه الصفة التي تجعل من "فرويد" عالم لغة.

قائمة المراجع:

1- عدنان حب الله، التحليل النفسي للرجولة والأنوثة، ص 55.
2- ينظر: عاطف مدكور، علم اللغة بين التراث والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (د.ت)، القاهرة 1987، ص 58.
3- ينظر: مالكولم بوي، البنيوية وما بعدها، تحرير: جوترو، ترجمة: محمد عصا، (د.ت) 1990،ص 160.
4- ينظر: عدنان حب الله، التحليل النفسي للرجولة والأنوثة، ص 56.
5- السيد إبراهيم، محاور، مجلة النقد الأدبي والدراسات الثقافية، ص 78.
6- باسم على خريسان، مابعد الحداثة –دراسة في المشروع الثقافي الغربي، دار الفكر، ط1، دمشق 2006، ص 88.
7- عدنان حب الله، التحليل النفسي للرجولة والأنوثة، ص 57.
8- السيد إبراهيم، محاور، مجلة النقد الأدبي والدراسات الثقافية، ص 79.
9- فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط1، 1993، ص 108
10- عدنان حب الله، التحليل النفسي للرجولة والأنوثة، ص 59.
11- عمرو عيلان، النقد العربي المعاصر، ص 103.
12- مالكولم بوي، البنيوية وما بعدها، ص 167.
13- عمرو عيلان، النقد العربي المعاصر، ص 103.
14- عدنان حب الله، التحليل النفسي للرجولة والأنوثة، ص 70.
15- جان ميشال بالمي، اللغة الخيالي والرمزي (جاك لاكان)، منشورات الاختلاف، ط1، 2006، ص 43.
16- المرجع نفسه، ص 43.
17- جاك لاكان، الخيالي والرمزي (جاك لاكان)، ص 118.
18- ينظر: زكرياء إبراهيم، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، دار للطباعة، (د.ت)، ص 195.
19- جاك لاكان، اللغة الخيالي والرمزي (جاك لاكان)، ص 12.
20- ينظر: رث باركن غونيلاس، الأدب والتحليل النفسي، ص 24-25.
21- ينظر: زكرياء إبراهيم، مشكلة البنية، ص 197.
22- عمرو عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د.ط)، دمشق 2008، ص 209.
23- ينظر: عدنان حب الله، التحليل النفسي للرجولة والأنوثة، ص 66.
24- عمرو عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، ص 210.
25- ينظر: مارسيل ماريني وآخرون، مقدمة في المناهج النقدية، ص 68.
26- عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، ص 212.
27- زكرياء إبراهيم، مشكلة البنية، ص 181.
28- ينظر: عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، ص 213.
29- ينظر: عمر عيلان، علم النفس والنفد الأدبي، ص 105.